الجدال الفكري العربي ودور المثقف المنتمي 1/2

30-7-2003

يبرز اتجاه "المراجعة الحضارية" والذي يشكل اليوم امتدادا للمدرسة الإصلاحية العربية، والتي كانت تدعو في لحظات المواجهة مع القوة الاستعمارية الغازية إلى بناء القوة الذاتية للأمة؛ لأنها هي القادرة على مواجهة الاستعمار، وإلى معالجة المشكلات الثقافية والاجتماعية التي تحول دون التطور الذاتي، وكانت هذه المدرسة تسعى إلى النهضة التعليمية والفكرية والثقافية والاقتصادية، التي تصلح شأن الأمة وتقوي عوامل الممانعة فيها ضد الأمراض الذاتية التي تتيح الفرصة للمستعمر الغازي وللفساد الداخلي، وكان تأكيد واهتمام هذه المدرسة ينصب على مواجهة التخلف والعمل على النهوض الحضاري.

بقلم محمد سليمان

يشهد الفكر العربي في مختلف الدول العربية مخاضا وجدالات معرفية كبرى منذ 11 أيلول وبدء الحملة الأمريكية على الإرهاب، وما تلاها من إرهاصات وتداعيات احتلال العراق، بحيث يظهر نوع من الجدال الفريد بين المثقف والواقع الذي يعيش فيه ويصارع مشكلاته وقضاياه. ويأتي هذا الجدال استئنافا لجدال سابق موازٍ له من حيث المشاكلة في اللحظة التاريخية ونقطة الانعطاف الحضاري إبان قدوم الاستعمار الغربي في بدايات القرن الماضي.

وينقسم الفكر العربي اليوم كما انقسم بالأمس بين عدة اتجاهات فكرية في النظر الى الصيرورة التاريخية ومآلاتها؛ ففريق من المثقفين والمفكرين العرب يرى في هذه اللحظة وبالحملة الأمريكية التي سبقت احتلال العراق ولن تنتهي به علامة إيجابية تسمح للإنسان العربي بشيء من الحرية واطلاق الطاقات والإبداع والتخلص من الأنظمة الاستبدادية التي مكثت على قلبه سنينا من الدهر، ولا يجد أنصار هذا الاتجاه غضاضة أو حرجا من القول أن الاحتلال الأمريكي للعراق هو بداية لتحرير الإنسان العربي، بل ويوافقون رؤية كبار الساسة اليمينيين الأمريكيين بأن تحرير الإنسان العربي سيبدأ من بغداد ومن فلسطين بحيث تخلصت الإدارة الأمريكية هناك من فاسدين هما: صدام وعرفات وأراحت شعوبهما منهما.

ويرى أنصار هذا الاتجاه أنّ الخلاص العربي من الحالة البائسة الضعيفة التي يعيشها هو في القبول بما يحمله المشروع الأمريكي -وثيقة الأمن القومي الأمريكي، مبادرة كولن باول- من الدعوة إلى الإصلاحات السياسية والاقتصادية والثقافية، مما ينقل العالم العربي والمنطقة إلى التفاعل الصحيح مع مقتضيات العولمة والانفتاح السياسي والاقتصادي، ويساهم في تحسين الوضع السياسي والإنساني للشعوب العربية، فالمشروع الأمريكي هو بداية لحلم التغيير العربي نحو العالم الحر المتقدم الواقعي.

ويرى هذا الاتجاه أنّ الأنظمة العربية والصراعات والشعارات والأيدلوجيات لم تزد الشعوب العربية إلاّ بؤسا وتخلفا بينما العالم يتقدم ويعالج مشكلاته بواقعية. وعلى سبيل المثال لا الحصر وحتى لا يظن فيّ القاريء سوءا بأني أتألى على الفكر العربي أحيله إلى مقالة محمد الجاسم، إغلاق آخر مخازن الشعارات العربية (افتتاحية النسخة العربية لمجلة نيوزويبك، ا اكتوبر 2002،ص 2) ودعوته إلى استثمار الحملة الامريكية والمبادرات المتتابعة لتحرير العالم العربي! والكف عن الشعارات المثالية العربية السابقة.

بينما فريق آخر لا يتردد أن يلقي أعباء ما أصاب الأمة والشعوب العربية على الكاهل الأمريكي والصهيوني، معتبرا انهما وراء كل الشرور التي أصابتنا وتصيبنا، ومشجب الاستعمار الذي يخفي وراءه تبرئة النفس من التقصير والخطايا والتخلف هو الملجأ السهل الذي يلجأ اليه المهزوم لتبرير الهزيمة والتخاذل.

إزاء هذين الفريقين يبرز اتجاه "المراجعة الحضارية" والذي في اعتقادي انه يشكل اليوم امتدادا للمدرسة الإصلاحية العربية، والتي كانت تدعو في لحظات المواجهة مع القوة الاستعمارية الغازية إلى بناء القوة الذاتية للأمة؛ لأنها هي القادرة على مواجهة الاستعمار، وإلى معالجة المشكلات الثقافية والاجتماعية التي تحول دون التطور الذاتي، وكانت هذه المدرسة تسعى إلى النهضة التعليمية والفكرية والثقافية والاقتصادية، التي تصلح شأن الأمة وتقوي عوامل الممانعة فيها ضد الأمراض الذاتية التي تتيح الفرصة للمستعمر الغازي وللفساد الداخلي، وكان تأكيد واهتمام هذه المدرسة ينصب على مواجهة التخلف والعمل على النهوض الحضاري.

ثم جاء مالك بن نبي فيما بعد وطوّر مفهوم "القابلية للاستعمار"، ووضع نظرية النهضة وشروطها في محاولة للفت الانتباه إلى أنّ المشكلة ليست سياسية، وإنما ثقافية حضارية، وأن مشاكل الأمة تحل عندما يتحرر الإنسان العربي من السلبية واللافاعلية إلى العطاء والصناعة والإنتاج.

لقد انخفض صوت هذا الاتجاه كثيرا في النصف الثاني من القرن العشرين أثناء مرحلة الاستقطابات والصراعات السياسية/الأيدلوجية الداخلية، ثم عاد ليقوى ويتعزز مع نهاية الحرب الباردة، وإخفاق الدول العربية في صراعها مع الكيان الصهيوني ومع التنمية في الداخل. وظهر زخم كبير له في السنوات الأخيرة مع عودة العديد من الباحثين والمؤسسات العلمية لقراءة عصر النهضة. وجاء تقرير التنمية الإنسانية في العالم العربي أخيرا ليعزز ويؤكد مقولات هذا الاتجاه من الاخفاق الشديد للعالم العربي في معالجة قضاياه ومشكلاته الذاتية.

وفي الوقت الذي لا يرى فيه هذا الاتجاه أن حل مشكلات العالم العربي يأتي من خلال الحملة الأمريكية، ويرفض أيضاً قبول أن الحل بالاتجاه غربا وإدارة الظهر للتراث والهوية، فإنه في المقابل يرفض مقولات مدرسة التبعية بتحميل الاستعمار كل مشكلات العالم العربي، ويرى أنّ الأسباب الداخلية هي التي أوجدت هذه المشكلات فضلاً عن الأسباب الخارجية، ويرى هذا الاتجاه أن الحل يكمن

بالسعي للنهضة الحضارية والثقافية والاجتماعية لمواجهة التخلف بعيدا عن الصراعات السياسية التناحرية الداخلية التي أفقدت الشعوب العربية كثيرا من طاقاتها، (انظر على سبيل المثال في الفكرة السابقة، محمد جابر الأنصاري، الإصلاح الشامل أو المجازفة بالمصير، مجلة الاجتهاد، ع 55+56، صيف وخريف 2002،ص 40).

ويرى هذا الاتجاه أنّ المشروع الأمريكي واحتلال العراق جاء ليكشف عن أعراض ونتائج المرض وليس أسبابه، وبالتالي مواجهة ذلك تكون بالمراجعة الذاتية للحضارة العربية، والسعي نحو التقدم والخروج من حالة التخلف، ويرى هذا الاتجاه أن مقاومة ومواجهة المشروع الأمريكي تتم في بناء عناصر القوة الذاتية للأمة، فالجزائر خاضت حرب التحرير ضد المستعمر وقدمت مئات الآلاف من الشهداء، لكنها تعود اليوم لتقف على أبواب صندوق النقد الدولي والدول الأوروبية طلبا للمساعدة في إدارة شؤونها الداخلية، والدول العربية لم تزد بعد الاستقلال إلاّ بؤسا وإهدارا للثروات، وسوءا في الإدارة، وإذا كانت الدول العربية تعيش حالة من الاستبداد والقهر السياسي والتهميش الاقتصادي، فالحل لا يأتي من الخارج أو من الأمريكي الذي يسعى خلف مصالحه على حساب مصالحنا، وإنما الحل في إزالة القابلية للاستبداد، وبناء المناعة ضده.

في ظل هذا الاتجاه من المراجعة يدعو السيد يسين - المفكر المصري- (في محاضرة له بمؤسسة شومان الأردنية [28/7/2003] بعنوان " الحال العربي الراهن")، إلى عملية نقد ذاتي حقيقية للذات تهدف إلى استنطاق مواطن الداء والخلل وأسبابها وصولا الى علاجها والخلاص منها، هذه الدعوة الى النقد، والتي تسود بشكل كبير في الأوساط الثقافية والفكرية العربية، و إن كانت تمت في كثير من الأحيان بشكل سطحي، تتناول فاعلا أساسيا يتحمل عبئاً كبيرا سواء في حالة التخلف أو في حالة النهضة والتقدم؛ ألا وهو المثقف العربي، خاصة بعد سقوط بغداد، والتساؤلات التي صاحبت السقوط عن واقع ودور المثقف العراقي بشكل خاص والعربي بشكل عام، بحيث تنوعت وتعددت الجدالات والنقاشات في مساءلة الهزيمة – على حد تعبير محمد جابر الأنصاري-.

ويبرز في هذا السياق من يحمل المثقف العربي والعراقي مسؤولية أساسية في انهيار العراق واستبداد صدام حسين (انظر على سبيل المثال: مقال صالح القلاب في صحيفة الشرق الأوسط "عازفوا الربابة ")، وهنا نصل الى النقطة الأساسية في النقاش القادم حول مسؤولية المثقف ودوره ولكن ليس في إطار مساءلته عن المرحلة السابقة، وإنما في سياق الحديث عن الواقع الحالي والدور المطلوب..